فقد - والله أعلم - ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أخذ ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ﴾ أولاً: بني آدم - ذريتهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فالمأخوذون هم بنو آدم بأسرهم، لا كما هم بعد خلقهم، وإنما ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ إيحاء إلى الأصل الأصيل من كيانهم وهو ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، دون الفصيل من ولدهم وليكونوا في ذلك الأخذ كائنين بظهورهم، فليس - إذاً - في كون قبل كونهم.

وترى إذا «من ذريتهم» هم من أنفسهم بأرواحهم وأجسادهم كما هم بعد خلقهم؟ وليسوا هم هكذا ذرية لأنفسهم! وإنما هو كون لهم قبل كونهم، فهم - إذاً - آباء أنفسهم! أم كون أوّل لهم قبل كونهم الأخير؟ فلا يصح القول ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ حيث يتطلب كونهم الحالي قبل كونهم الحالي، تقدم الشيء على نفسه!.

ثم من هذا الذي يذكر ذلك التساءل وحتى أفضل المؤمنين فضلاً عن أدناهم أو المشركين؟ فلهم الحجة - إذاً - ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾! ثم أنى لهم من آباء وهم كل ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ دونما استثناء! حيث يعم كل الآباء والأبناء في الطول التأريخي الإنساني، فلا حجة إذا للمشركين منهم لو لا المسائلة ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾.

أو ترى ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هم بأبدانهم دون أرواح، نطفاً أم كما هم الآن؟

و﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ ليست هي كل أبدانهم! والنطف دون أرواح لا تعقل حتى تشهد على أنفسها أم تتساءل عن وحدة إلهها! حقيقة أو تقديريا و«هم» المربع في كلمات الآية: الأربع «ظهورهم - ذريتهم - أشهدهم - على أنفسهم» دليل الحياة العقلية هناك حينذاك! ولا يرجع ضمير العاقل إلى الجسم الإنساني إلا اعتباراً بروحه الكائن فيه، أو كان أم سوف يكون.

أم هي ذرية الأبدان: «النطف» مع أرواح تعقل وتشهد؟ ولا تسمى هذه المجموعة ذرية بل هي الآباء الأصول وهم الذرية الفروع.

ثم و﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ كلهم عن ذلك الإشهاد وتلك المسائلة غافلون، إذا فلهم الحجة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ دون فارق بين ما لو كانت هذه مسائلة واقعة أم لم تكن! فهل أخذت ذرية الأبدان بأرواح عاقلة مكلفة تثبتاً لما ليست بحجة على أية حال، إذ لا يذكره أحد من بني آدم حتى أفضل المؤمنين فضلاً عن المشركين!.

ثم وآية الإنشاء ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1] وآيات كأضرابها، تضرب بخلق الأرواح قبل الأجساد ضرب الحائط!.

أم إن ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هي فِطَرهم فإنها ذريات الأرواح، فكما النطف هي ذريات الأجسام وأصولها، كذلك الفِطَر هي ذريات الأرواح وأصولها، وإنما كيان الإنسان بروحه، وكيان الروح بفطرته ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ فهي الأصيل الأوّل من بعدي الإنسان الأصيلين الجذريين، فللجسم بعد الأصل النطفة الذرية وبعد الفرع، سائر الأجزاء المتفرعة عليها، وللروح بعد الأصل الفطرة الذرية، وبعد الفرع سائر الروح المتفرعة عليها، فأحرى بالفطرة أن يعنيها «هم» هنا وهناك.

فما لم يشهدوا على أنفسَهم فيعرفوها، لا يصح أن يُشهدوا على أنفسهم فيعترفوا بحكم فطرتها فـ «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فليعرف الإنسان نفسه بفطرته ليعرف على غرارها ربّه، فإن معرفة النفس أقرب ما يعرفه الإنسان من مطلق الكون، فلا يعذر أحد في جهله نفسه ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟...﴾.

والسؤال: ألست بربكم - تقديري أن جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه - وذلك السؤال نفسي وخارجي، فلو تعنت الإنسان في الإجابة الصحيحة عن

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

ذلك السؤال فهو بينه وبين نفسه يجيب ﴿بَلَىٰ﴾ لا سيما إذا تقطعت الأسباب وحارت دونه الألباب، إذ يراه يتعلق قلبه بسبب واحد خفي وهو الله تعالى شأنه العزيز! ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ شهوداً فطرياً، ثم فكريّاً.

فقد أخذ الله فطرة كل إنسان وهناك الإشهاد والمسائلة؟

وكيف تؤخذ الفطرة التي فطر الناس عليها قبل خلق الناس بروح وجسم، والفطرة هي أعمق أعماق الروح، وقد خلقت الأرواح بأعماقها بعد الأجساد كما تقوله آية الإنشاء؟

وترى «من» هنا تبعيضية تعني أن المأخوذ هنا هو البعض من بني آدم، فهل هو البعض من الكلي وهم جمع منهم؟ وهذه الحجة مأخوذة على كلهم! ثم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ دون «ذرياتهم» تؤكد أن ذلك البعض هو البعض من كل واحد منهم.

أم هي نشوية تعني نشوء ذلك الأخذ من منشإ بني آدم ثم المأخوذ هو ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ عناية إلى فطرهم التي هي ذريات الأرواح وأصولها، أم هي بيانية تبين المأخوذ انه ليس بني آدم من كل منهم كله، وإنما هو ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وهي أصول أرواحهم وفطرهم.

وعلى أية حال المأخوذ منهم في ذلك العرض للحجة الذاتية هو الأصل المعطى لهم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1].

فـ ﴿أَخَذَ﴾ هنا حكاية عن كيان تكوينه بصورة المسائلة - وليست في الحق مسائلة ماضية - بل هي تقديرية أنه إذا سئل أجاب ﴿بَلَىٰ﴾ فقد خلق في حاق ذاته على قول ﴿بَلَىٰ﴾.

وجواباً عن سؤال: لماذا هذا التعبير الغامض عن حجة الفطرة، وهي مذكورة في آية الفطرة ببساطة؟

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

نقول: آية الفطرة تتحدث عن أصالتها وبسالتها في أحكامها، وآية الذرية تبين مكان الفطرة بمكانتها، أنها ذرية الروح وأصله وأثافيّه، ولأن المخاطب فيها أولاً هو الرسول ﷺ فلا ضير في أجمالها بعرضها إياها بذلك الجمال.

أجل هناك ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ تقرير لأصالة الفطرة في كيان الإنسان، وهنا ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أنها من ظهر الروح، تعبيران متجاوبان يتحدثان عن أصل كيان الإنسان وأثافيّه.

فقد تعني ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذه - والله أعلم - فِطَرهم[1]، دون أرواحهم ككل ولا أجسادهم في جزءٍ ولا كلٍّ، والفطرة من كل إنسان هي أصله الأصيل، فإنها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ

(١) وفيه روايات كما في نور الثقلين ٤: ١٨٤ ح ٥٣ عن أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وفيه المؤمن والكافر.

وفيه ٢: ٩٦ ح ٣٥٢ عن التوحيد بإسناده المتصل عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام أصلحك الله قول الله في كتابه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]؟ قال: فطرهم على التوحيد عند الميثاق وعلى معرفة أنه ربهم، قلت: وخاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه ثم قال: لو لا ذلك لم يعلموا من ربهم ولا من رازقهم، أقول: طأطأة الرأس نكران أن يكون هناك قال فإنه لا يضمن المعرفة، وإنما حال الفطرة ذاتية هي التي تضمن المعرفة.

وفيه ٢: ٩٧ عن التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمن يوم القيامة؟ قال: نعم قد رأوه قبل يوم القيامة! فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: ألست بربكم قالوا بلى ثم سكت ساعة ثم قال: وان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا - فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقول ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون الملحدون.

أقول: ورؤيتهم قبل القيامة هي رؤية المعرفة الفطرية دون رؤية المقاولة المشافهة وقد تكون للمنافقين أكثر!

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] وهي حجر الأساس لإنسانية الإنسان.

فالإشهاد والمسائلة لا تعنيان إلّا قضية الفطرة لبني آدم على طول الخط دون زمن خاص واحد، بل بمستمر زمن الخلقة لذلك النوع الإنساني، وكما في آيات خطاب السماء والأرض ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢] وعديدة من آيات التكوين: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣].

فـ «إذ» لا تعني زمناً سابقاً على خلقة ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولا ﴿أَخَذَ﴾ تعني واقع أخذ الفطر من ظهور الأرواح، ولا ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تعني إشهاداً واقعاً قبل خلقهم، ولا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ سؤال لفظي عن الفطر، ولا ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ إجابة في قوله باللسان.

فقد تعني «إذ» كل زمن خُلِق ويُخلَق فيه من بني آدم، وهو مثلث الزمان إلى يوم القيام و﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تصوير فني منقطع النظير لما يفعله تعالى ببني آدم حين يخلقهم، أنه يتبنى العصمة في أعمق أعماق كيان الإنسان كإنسان، والأفعال الماضية هنا تشمل مثلث: زمن الخلق لبني آدم، ومن مضى منهم لمضيّه، ومن يستقبل لتحقق وقوعه كمضيه، فلم تكن مسائلة قبل خلقهم، فإنما، وعلى حد المروي عن الصادق عليه السلام: جواباً عن سؤال: كيف أجابوا وهم ذر قال: «جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه»[٤] فالتساؤل - إذاً - تقديري لا واقع له قبل خلقهم، فهو تصوير فني عما قدر في ذات الإنسان بصورة المسائلة وليس بها.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٣) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٤) في الكافي وتفسير العياشي عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام كيف أجابوا وهم ذر؟=

ثم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ كخلفية لهذا الأخذ: أنهم شهدوا أنفسهم دون ستار، فعرفوها دون غبار، فأشهدوا على أنفسهم بحكم الفطرة أنه تعالى ربهم، حيث تصرخ الفطرة من أعماقها عند السؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ - تصرخ صارحة: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ شهدنا أنفسنا وشهدنا على أنفسنا أنها في حاق ذاتها موحدة لله تعالى! ولقد «صنع منهم ما اكتفى به»(١) حجة لوحدانيته عليهم، وعلّ الأخذ تعني ذلك الصنع، وهو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وقد يعنيه المروي عن الصادق عليه السلام تفسيراً لآلية: «نعم لله الحجة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق هكذا وقبض يده»(٢) فالأخذ هو الأخذ الصنع

= قال: وكان محمد أول من قال بلى، قال: كانت رؤيته معاينة فأثبت المعرفة في قلوبهم ونسوا ذلك الميثاق وسيذكرونه بعد ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ولا من رازقه (البرهان ٢: ٥٠ ح ٢٦).

وفي المحاسن عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: كلّ ذلك معاينة فأنساهم المعاينة وأثبت الإقرار في صدورهم ولولا ذلك ما عرف أحد خالقه وإلا رازقه وهو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزّخرُف: ٨٧].

ذلك، والمروي عن علي عليه السلام: «إني لأذكر الوقت الذي أخذ الله على فيه الميثاق» كما أخرجه ابن المغازلي في المناقب (١٠٠) بسنده عنه عليه السلام أنه قرأ عليه أصبغ بن نباتة هذه الآية فبكى عليه السلام أقول: إنه قد يعني الميثاق الخاص، أم وميثاق الفطرة معرفة كاملة، دون عالم قبل خلقه يسمى الذر.

(١) وفيه ٣٦٢ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قالوا بألسنتهم؟ قال: نعم وبقلوبهم فقلت وأي شيء كانوا يومئذ؟ قال: صنع منهم ما اكتفى به.

أقول «وبقلوبهم» عله تفسير لقوله: نعم بألسنتهم حيث يعني لسان الحال، الذي يبدو في أحبائه في المقال و«صنع منهم ما اكتفى به» هو اكتفاء الحجة حيث صنع فيهم الفطرة التي تحكم في ذاتها بتوحيد الله.

وفي تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام في آية الميثاق قلت: معاينة كان هذا؟ قال: نعم فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه.

(٢) وفي تفسير العياشي عن زرارة قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الحجة، فهم في قبضته فطرياً بميثاقهم دون تلفّت عنه ولا تفلّت إلّا من ظلم نفسه.

﴿أَخَذَ . . . ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حيث أخذ يخلق أرواحهم، أخذاً في أخذ دون أي وخز، وأين أخذ من أخذ؟! وهذه هي الحجة الوحيدة الذاتية، غير الوهيدة على أية حال، تقطع أية عاذرة في الأنفس والآفاق، ومن الأولى الغفلة الذاتية الفطرية للنفس:

﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ حيث الغفلة الفطرية العاذرة تعذر صاحبها في غفلة عقلية، فتغافلا عن تذكيرات الرسالات الإلهية، وأما اليقظة الفطرية فصاحبها غير معذور وإن لم يعقل، مهما كانت الحجة عليه قدر حكم الفطرة.

فما لم يتزود الإنسان في أعماق ذاته بحجة التوحيد، المعصومة، والعقول ليست معصومة ولا - بأحرى - عاصمة دون أخطاء، والشرعة الإلهية لا تقبل إلّا بحجة معصومة، فالإنسان معذور في ترك الشرعة، وله الحجة - إذا -: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ -: غافلين عن أن الله ربنا! إذ لم يكتب في ذواتنا كلمة التوحيد.

ومن الثانية عامل التربية، فلولا الفطرة المفطورة على التوحيد، فلمن يشرك بالله، خاويا عن حجة ذاتية، عائشاً في جو الشرك، في تربية شركية بين الآباء، أم أي مجتمع شركي، إن له عذراً في إشراكه بالله، لقصوره الذاتي، والواقع الخارجي.

ولا يقطع الأعذار الأنفسية والآفاقية، إلّا حجة ذاتية فطرية، وهي الدين حنيفا، حيث أمرنا بإقامة وجوهنا إليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]. حجة قيمة قائمة على كل نفس بما كسبت، لا تبدّل لها ولا تبديل، قاطعة كل عذر إلّا الجنون، أماذا من قصور دون تقصير، فالفطرة بنفسها ليست حجة كاملة ما لم يساندها العقل فيستند إليها، ثم الشرعة الإلهية تتبنى العقول كوسائط والفطر كأصول، وهنالك تتم الحجة البالغة الإلهية.

صحيح أن العقل الإنساني حجة رسمية راسمة لتكاليف الشرعة، حاسمة كل عاذرة أمام الشرعة، ولكن الذي لا يعقل كما الإنسان العاقل، يكلّف قدر تمييزه مهما لم يكن كتكليف العاقل، فإذا كانت الدواب كلها تحشر لتطبيق الجزاء الوفاق: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٢].

فبأحرى الإنسان سفيهاً أو مجنوناً أو قاصراً أن يكون مسؤولاً قدر تمييزه، وكما «إن الله يداق العباد في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم» كذلك الدقة في الحساب للدواب وغير العقلاء من الإنسان على قدر تمييزهم!

ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾[٣] أنفسية كما نفصلها آفاقية ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إليها بادئين بآيات الفطرة، حيث تتبنى الإنسانية كأول خطوة.

ذلك هو التجاوب المفهوم بين آيتي الفطرة والذرية، فإذا كانت الثانية متشابهة فالأولى المشرقة بنسبتها تفسرها، ونصدق فيها تفسير الروايات الملائمة لها، ونكذب المخالفة لصراحة أو ظهور مستقر فيهما، ونرد المشكوك إلى قائله دون رد ولا قبول.

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

وذلك هو العهد الأول، المعهود في الفطرة، حيث يندّد بهم الله في نقضه: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[1] فالعهد إليهم كلهم ليس إلّا عهد الفطرة، حيث المجانين والعائشين في الفترة والقصّر خارجون عن عهد الشرعة، ثابتاً فيهم عهد الفطرة.

كذلك ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾[2]. عهد لزام الفطرة، هو حزام صارم لذوي الفطرة، لا يعذرون في إشراكهم بالله على أية حال، وعلى حد تعبير الإمام الصادق عليه السلام: صنع منهم ما اكتفى به[3] وكفى بحكم الفطرة حجة.

ذلك هو التفسير المفهوم لآلية المقبول لدى العقول، وهو القدر المتيقن بما تعنيه، مهما روي بجنبه عالم آخر هو الآخر يسمى الذر لا نعرف معناها ومغزاها[4] إلّا البعض مما تضاد الآية، والواقع المعقول بحق القبول.

وهنا يتجلى الحق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[5] فما فوق الشرك هو الإلحاد في الله بنكران وجوده

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.
(٣) قد مضى حديثه أخيراً تحت الرقم (١) حول هوامش تفسير الذر بالفطرة وفي تفسير العياشي عن رفاعة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؟ قال: نعم لله الحجة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق وهكذا وقبض بيده.
(٤) وفي تفسير البرهان ٢: ٤٩ ح ٢٠ - ابن بابويه بإسناد متصل عن الفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في حديث طويل قال قال الله عز وجل لجميع أرواح بني آدم: ألست بربكم قالوا بلى، كان أول من قال بلى محمد صلى الله عليه وآله فصار بسبقه إلى بلى سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين.
(٥) سورة النساء، الآية: ٤٨.

فبأحرى لا يغفر أن ينكر إذا لا يغفر أن يشرك به، وما دون ذلك هي كافة المعاصي دون الشرك، يغفرها على شروطها، وطبعاً عدم الغفران لمن يشرك به ليس في حياة التكليف، إنما هو من مات على الشرك.

لا يغفر أن يشرك به لأنه خلاف حكم الفطرة من زاوية، وخلاف حكم العقل من أخرى، حيث التصديق بوجود الإله الخالق والإشراك به في شأن من شؤون الألوهية لخلق من خلقه، إنه تسوية برب العالمين وذلك هو الضلال المبين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1] فكيف إذا ترك عبودية الله إلى عبودية غير الله، فإنه أظلم من تلك التسوية الظالمة الضالة ما أظلمه.

رجعة أخرى إلى الآية في نبرات:

١ - ﴿رَبُّكَ﴾ هنا تلمح لرباط عريق بين ما ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ في ذلك العرض الفطري، فكما رباك ﴿رَبُّكَ﴾ التربية القمة العالية، كذلك ﴿رَبُّكَ﴾ ربى ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ككل تربية الفطرة المعصومة، فهنا لك عصمتان اثنتان، عصمة ربانية أولى للإنسان هي لفطرت الله التي فطر الناس عليها، وعصمة ربانية ثانية هي للمرسلين ومن يحذون محذاهم من أئمة الدين المعصومين، وبينهما العصمة الإنسانية قدر المساعي المبذولة للحصول عليها، وهي في مثلث من الأضلاع: الفطرة - العقل - الشرع، فالعقل السليم يأخذ كأصل أوّل من الفطرة السليمة، ثم يأخذ من شرعة الله كأصل ثان، فيتكامل قدر معطياته ومساعيه.

٢ - ثم ضمائر الجمع في «ظهورهم - ذريتهم - أشهدهم - أنفسهم - ربكم - قالوا» هذه الستة تعني كل ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ دونما استثناء.

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.